



مَدَّ أكبر من جزء

بالصرخ والعويل والبكاء الذي بلل الفاجعة، استقبلت الأم الجيش النظامي الأسدية الذي جاء إليها بابنها مقتولاً ليلاقيه على باب الدار.. وبعد سنة ونصف السنة، تكرر الصراخ أعلى والعويل أشد على ولدتها الثاني الذي خرج من المعتقل إنسان آخر رسمت ملامحه آثار التعذيب ليسقط ميتاً على نفس باب الدار.. واليوم ودعت ابنها الثالث والأخير لكن لمصيرٍ رأته خيراً وأكثر رحمة، أرسلته إلى صفوف الجيش الحر مقاتلاً ومدافعاً.

ربما انضمماً مثل هذا الشاب لم يزد أفراد الجيش الحر إلا واحداً من عشرات الآلاف، لكنه كان متمماً لمسيرة سابقيه من الشهداء والمقاتلين، و ممهداً لمسيرٍ جديد يبذله الشباب الآخرون الذين يدفعهم إيمانهم واقتلاعهم بمبادئ الجيش الحر ومساندتهم لجهاده في الشارع للالتحاق به تاركين وراءهم أهليهم وبيوتهم مهديين دوماً بخطر المسح القاتم من على وجه الحياة ..

فمنذ اليوم الأول من عمر الثورة، برهن أبناؤها من المدنيين أنهم خير امتدادٍ سلمي للثورة المسلحة وخير مكملاً لبطولات الجيش الحر.. سواء من خلال الدعم النفسي لهم باستقبال انشقاقاتهم ثم تأمين سرية تحركاتهم، أو الدعم العاطفي بالدفاع عنهم إعلامياً لبيان أن هؤلاء الثوار هم منبثقون من رحم الشعب، أو الدعم المادي بتأمين مستلزماتهم من عتاد ومؤونة.. فالعلاقة بين الجيش الحر وحاضنته الشعبية كانت و ما زالت علاقة تبادلية تفاعلية لا ينفع جزء منها دون الآخر.

مع أول انشقاقٍ عسكري بادر أبناء الثورة بتأمين البيئة الداعمة والحمامة له تماماً على أمل وجود قوة تحمي المتظاهرين المسلمين من بطش النظام الأسدِ بهم، وفعلاً عندما سُجّل أول انشقاق عسكري كان للمجندي «وليد القشعبي» مع بعض زملائه، صرّحوا أن من حماهم وغطى انشقاقهم هم المتظاهرون الذين خرجوا في منطقة حرستا، بعد أن رفضوا إطلاق النار عليهم حسب تعليمات الجيش الأسدِ، وعلى الرغم من المخاطر التي لفّت هذا الانشقاق وما تبعه من تهديداتٍ لأسر المنشقين إلا أن الاحتضان الشعبي الذي قوبلوا به كان المحرك الأفضل لعمليات الانشقاق اللاحقة ومنها أيضاً انشقاق «عبد الرزاق طلاس» برتبة ملازم أول الذي دعا للانحياز إلى مطالب المواطنين العزل وأكّد إصراره على ذلك، وغیرها الكثير من سلسلة الانشقاقات المستمرة حتى الآن والمتباينة من وإلى الشعب الأعزل.

ولم يتوقف الدعم الشعبي للجيش الحر عند دعم أبطاله المنشقين، بل شاركتهم نساء سوريات ثورتهم المسلحة سواء بدعم نفسي أو قتالي و منهن «ثوبية كنفاني» المهندسة الفارمة من كندا لتنضم إلى الجيش الحر و «آلاء موراللي» المعتقلة الحرة التي ظهرت في تسجيل مع أفراد الجيش الحر في اللاذقية تعلن دعمها لهم.

وعلى الصعيد الإعلامي، لم يوفر ممثلو تنسيقيات الثورة وإعلاميوها فرصة للدفاع عن بطولات الجيش الحر وإظهارها للمجتمع الدولي أو حتى تصحيح أخطاء بعض أفراده وإعادتهم إلى ركب الثورة الصحيح، وتوثيق عملياتهم وموافهم بالتسجيلات والتقارير وإيصالها للإعلام.

و من لم يستطع متابعة الجيش الحر في انشقاقاته وتوثيق عملياته فقد اختار أن يكون لهم جناحاً آمناً وعائلة بديلة، من خلال إمدادهم بمؤونات الطعام والشراب وأحياناً المنازل التي يهبها أصحابها كمقرباتٍ لعمليات بعض أفراد الجيش الحر، إضافة إلى الدعم المادي ولو البسيط الذي يساعدهم على تحسين دفاعاتهم، يقيناً من هذه العائلات أن الجيش الحر قد أصبح الخيار الأفضل لمتابعة ثورة أبنائهم السلمية وحمايتهم.

لكن القوات الأسدية تنبهت إلى آثار أفعال الجيش الحر ومن يساندهم على المواطنين السوريين جمِيعاً، فلعبت لعبتها القذرة في استهداف الوحدات السكنية في الأماكن التي قد يلجم المنشقون الجدد في الجيش الحر أو تُستهدف القوات الأسدية منها، ليكره سكان هذه المناطق الجيش الحر ويتحولوا من داعِمٍ و مؤيدٍ له إلى مبلغ عنه إلى «الجهات المختصة» كما يسميهما النظام.

حيث لجأ النظام الأسدِ إلى توظيف أكبر قدرٍ من القوة ضد المناطق السكنية ليس فقط لاستهداف الجيش الحر الذي مازال يصعب على النظام الأسدِ حتى الآن القضاء عليه أو حتى إحداث شرخ في صفوفه، بسبب تمنعه بدعم الحاضنة الشعبية وأيضاً لامرکزیته حيث أن وجوده ليس مرهوناً إلا بقتل عصابات الأسد أينما وُجدت، وإنما لاستهداف المدنيين وبالتالي دفعهم بشكل واعٍ أو غير واعٍ لتحميل مسؤولية مصابهم من دمار وقتل للجيش الحر، أي إحداث هوة في العلاقة بين الجيش الحر والمدنيين الحاضنين له تسهيلاً لسبل القضاء التام على الجيش الحر حسب ظن النظام.

و توصف جرائم النظام الأسدِ بحق شعبه الأعزل الداعم للثورة بأنها جرائم ضد الإنسانية، وجرائم حرب، وكذلك جرائم تطهير عرقي، بدءاً بالقصف المدفعي والصاروخي، ثم التدمير المنهجي بالأسلحة «الفراغية» و «الكيماوية» التي استخدمت في بعض المناطق، انتهاءً بمجازر الذبح الجماعي التي وصلت حصيلة ضحاياها لأكثر من 400 شهيد في اليوم الواحد.. إضافة إلى استهداف مخيمات اللاجئين في الدول المجاورة إما بقصصها أو إرسال «شبيحاتهم» لإرهاب أهلهما.

كل ذلك بهدف إضعاف الجيش الحر وإرهاب قاعديه الشعبية، وإحداث حالة نفور بينه وبين حاضنته الاجتماعية، وجرّه وقيادات الثورة إلى مفاوضاتٍ شكلية تستنزف القوة الفكرية والإرادة الحاسمة لهم، فتعيد الشعب إلى سابق عهده في الخضوع والصمت.. لكن أبناء الثورة من مدنيين أو عسكريي الجيش الحر ما زالوا في وحدة حال تقوى كل ما قويت عليهم قبضة الأسد أولاً بالنصر القريب.

المصادر: